الفصل الثالث

براءته من الزندقة والشعوبية

obeikandl.com

مدخل:

خلق الله العقل ليشهد بالحق للمحق وبالباطل للمبطل؛ وعليه أن يفتح نوافذه على تراثه وثقافته. بمثل ما يستوعب ويفيد من ثقافة الآخر وتراثه في الماضي والحاضر. ومن هنا يؤكد المرء من جديد أن ابن المقفع عاش في مرحلة زمانية مختلطة الثقافات والتيارات الفكرية والسياسية؛ ومتباينة التأثيرات الدينية والمذهبية... وكأنها أشبه بالأمواج المتلاطمة.

وليس هناك من شك في أنه كان مقتبل عمره يعتنق المانوية المنسوبة إلى (ماني)، وهي واحدة من المذاهب الدينية الفارسية، ورثها عن أبيه وأسرته وقومه، وإن كان بعضهم على مذاهب أخرى كالمزدكية نسبة إلى (مزدك) أو الزردشتية نسبة إلى (زردشت بن أسبيمان)[1]

وسبق أن قلنا: دخل دواوين الولايات في عهد بني أمية سنة (128هـ) في عهد والي (كرمان)، داوود ابن عمر بن هبيرة، ثم عهد أخيه بن عمر آخر بني أمية على (كرمان)، وتبين لنا من قبل أنه لم يسلم حتى كان عهد عيسى بن علي (عم أبي العباس السفاح، وأخيه المنصور) سنة (132هـ) على الأهواز إذ اتصل به، ثم أسلم على يديه في خبر مشهور تقدم ذكره[2]، لهذا فإن تقربه من رجال الدولة لم يكن سبباً في إسلامه كما ذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة[3]؛ فضلاً عن أنه اتصل بوالي (نيسابور) المسبح الخويلدي ثم والي سفيان بن معاوية

(1) انظر الفهرست 456- 484 ومروج الذهب 1/ 229 و 249- 251 والملل والنحل 9- 120 ودراسات في الشاهنامه 242- 277.
(2) أنظر تاريخ الأدب العربي (بروكلمان) 3/ 90 وراجع ما تقدم/ خبر إسلامه/ حاشية 21 من الفصل الأول.
(3) انظر ابن المقفع 45.

obeikandi.com

بن يزيد بن المهلب.

ولم يكن أمر ابن المقفع بدعاً، فهناك العديد من رجالات دولة بني العباس ظلت على عقائدها الأولى وهي تعمل في تأديب أولاد الولاة والخلفاء وفي دواوين الدولة.

في هذا الجو من الحرية الدينية والفكرية كان يعيش ابن المقفع، وإن رافق ذلك فتن عظيمة كقطع الليل البهيم، في الأمور السياسية، ولا سيما المتعلقة بالخلافة. فقد شهد مرحلة الخلافة من بني أمية إلى بني العباس وكاد يحترق بنارها عندما صادق (عبد الحميد الكاتب) الذي عمل في دواوين آخر خلفاء الأمويين مروان بن محمد[4].

ولما دخل دواوين الدولة ولمس المكائد التي يحوكها القريب للقريب، قبل الغريب للغريب ابتعد عن الشؤون السياسية؛ وطفق يمارس حريته الفكرية بكل جوانبها مستغلاً اتقانه لصناعة الكتابة حتى علا شأنه، ولما انغمس في الشأن السياسي، ولم يكن له بد من هذا؛ دفع رأسه ثمناً له[5].

ولا يزال المرء يردد دون ـ ملل ـ أن الحرية الفكرية والاجتماعية كانت مصونة من قبل الإسلام وولاة أمره من الخلفاء والولاة والقادة، على عكس الحال في الشأن السياسي. ولا شيء أدل على ذلك من أن المهدي الذي تولى الخلافة من أبيه المنصور أمر أهل الجدل والنظر من المتكلمين أن يصنفوا الكتب في الرد

(4) راجع ما تقدم 18- 21 و 32 – 42.
(5) راجع ما تقدم في الفصل الأول (مصرعه) بدءاً من الحاشية 83 وما بعدها.

obeikandl.com

على الملحدين[6].

وفضلاً عن هذا فقد اشتد الأخذ والرد بين أهل الحديث وأهل الرأي؛ فكان كل رأي يعرض للمناقشة[7] من دون تحفظ، وبحرية لا نظير لها.

ومن ثم مارس الأدباء والنقاد واللغويون والفلاسفة والمفكرون حرية اجتماعية وأدبية واسعة في حياتهم بلغت مرحلة كبيرة من التطرف في الاستهتار وقصف المتع؛ وشرب الخمرة؛ والهجر في القول والتغزل بالغلمان، وكان كثير منهم يجتمعون على ذلك، ومن ثم لم يمنعوا من الدخول على السلطان ما داموا بعيدين عن الإساءة إليه أو ما داموا لم يتعرضوا لنظام حكمه والنيل منه.

وفي صميم هذا كله كان ابن المقفع يعيش حياته، ويمارس مهنة الكتابة ترجمة وتأليفاً فذاع صيته، وبزت شهرته كثيراً من القوم فتناوشته الآراء واختلفت في أمره؛ فقسم منها رآه صحيح الدين قبل إسلامه، وبعده، ومن ثم كان صادق الانتماء لفارسيته ولكنها ليست على حساب ولائه الجديد للأمة الإسلامية؛ والعربية. وقسم آخر منها وقف في الخندق المقابل يتهمه بالزندقة، والعصبية للفرس باعتباره شعوبياً خبيثاً منافقاً، وأخذ كل قسم يؤيد رأيه بالأدلة العقلية والنقلية.

ولعل هذا كله فرض على الباحث أن يخصص فصلاً كاملاً لبراءته من الزندقة؛ ولكي يتوصل إلى ذلك كان عيه أن يلتزم بالمنهج الموضوعي الذي يطرح المقدمات ليصل منها إلى النتائج.. وهو المنهج نفسه الذي يلزمه بتحديد

(6) انظر ضحى الإسلام 1/ 141 من مدخل الفصل الأول.
(7) راجع ما تقدم: حاشية 13 و 14 من مدخل الفصل الأول.

obeikandl.com

مفهوم الزندقة قبل أن يبسط القضية وأسبابها.

مفهوم الزندقة:

تعددت مفاهيم الزندقة منذ القديم، واختلف عليها الناس لاختلاف أسباب نشأتها، وحين وصم ابن المقفع بها، كانت متعلقة بتلك المفاهيم، على إيماننا ببراءته منها، لابد من الوقوف عند أبرزها؛ وهي:

الزندقة تطلق على كل من يتبع كتاب (زند)، والزند كتاب لزردشت بن أسبيمان شرح فيه كتاب الفرس المسمى (الأفستا) ثم عاد فشرح الزند بكتاب آخر سماه (البازند).. فالزند لفظ فارسي معرب مأخوذ من الفارسية، والأصل فيها كما جاء في اللسان (زندكراي)، ومعناه القائل ببقاء الدهر. وهو معنى ليس في كلام العرب؛ لهذا أقاموا اللفظ الفارسي مقامه وصار لفظ (الزندقة) مصدراً واسماً، والمفرد المذكر منه (زنديق) والجمع (زنادقة) وفعله تزندق: اعتنق الزندقة)[8].

الزندقة تطلق ـ غالباً ـ على جماعة ماني بن يزيد المولود سنة (215 ـ 216م)؛ وعلى معتنقي مذهبه الذي عاش حتى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وكان قد أقر بنبوة عيسى وزردشت، وادعى النبوة، فإذا كانت الزندقة في الأصل تدل على من يتبع كتاب الزند فإنها صارت تطلق على المانوية الذين يأخذون به وبغيره من الكتب المقدسة، ويشرحونها وفق تأويلاتهم الخاصة. فالمصطلح يدل على الثنوية المانوية؛ إذ نشأ العالم من النور والظلمة،

[8] انظر مروج الذهب 1/ 251 واللسان (زندق) وفجر الإسلام 108.

obeikandl.com

وعن النور نشأ كل خير وعن الظلمة نشأ كل شر[9]. ومن ثم فإن المانوية تحرم الذبائح، وتكره إراقة الدماء، وتزهد في أكل اللحم والمتع والشهوات، وكل من يفعل فعلها يوصم بالزندقة، وهو ما عرض له الجاحظ وغيره[10]. ومن ثم صارت الزندقة تعني كل من أظهر الإسلام، وأسر المانوية، على مذهب المنافقين.

الزندقة تعني اتباع المجوس عامة:

ظهر مزدك في فارس ودعا إلى مذهب ثنوي يقول بالنور والظلمة، وقد شرح - أيضاً - كتاب (أفستا) لزردشت، وصار كل من يدين بماني أو مزدك زنديقاً، وحكى الآلوسي عن ابن الكمال أن مفهوم الزندقة يطلق على المزدكية[11].

ومن هنا يبدو لنا أن الزندقة كانت تطلق على طائفة من المانوية ثُم استعملت كذلك في دين المجوس كلهم؛ ثم عرفت فيمن أظهره، ولم يعلن الإسلام؛ كالذي يرويه الجاحظ(ت 255هـ) عن كتب الزنادقة فيقول في (الحيوان) على لسان إبراهيم بن السندي: وددت أن الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقي الأبيض؛ وعلى تخير الحبر الأسود المشرق البراق، وعلى استجادة الخط والإرغاب لمن يخط، فإني لم أر كورق كتبهم ورقاً قلت لإبراهيم إن اتفاق الزنادقة على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على

[9] انظر الفهرست 457 وبعد الملل والنحل 115 – 116 وفجر الإسلام 104- 108.
[10] انظر الحيوان 4/ 428 و 432- 433 ومروج الذهب 230/1 و 249 – 251 والفهرست 457 وضحى الإسلام 153/1 – 154.
(11) انظر فجر الإسلام 108 وضحى الإسلام 1/ 154.

obeikandl.com

البيع..[12].

والذي يدل على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر، ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة ولا استخراج آلة؛ ولا تعليم فلاحة ولا تدبير حرب، ولا مقارعة عن دين، ولا مناضلة عن نحلة. وجل ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت وكله هدر وعي وخرافة، وسخرية وتكذب، لا ترى فيه موعظة حسنة، ولا حديثاً مونقاً، ولا تدبير معاش[13].

الزندقة تعني المجون والخلاعة والاستهتار والتظرف:

توسع مفهوم الزندقة عند العامة، قبل الخاصة ليصبح مصطلح الزنديق دالاً على كل متهتك مجاهر بالفجور، متبجح به، فهو الإباحي المتفلت من القيم، والأخلاق الفضلى. ويبدو أن هذا المعنى قد شاع بسرعة على الألسنة والسبب في ذلك أن الاستهتار والعهر يؤدي إلى إشاعة الرذيلة والشر بين الناس مما يؤدي إلى المساس بالخلق، ومن ثم بالدين وتعاليمه، فالزندقة بهذا الاتجاه إنما تمثل انحرافاً في السلوك القويم، وهو ما يأبه الإسلام، فلما أمعن بعض الأدباء والفلاسفة والمفكرين في فجورهم حتى اشتهروا به؛ إذ كان همهم المتع من الشهوات كلها، التصقت بهم تهمة الزندقة التي تعني الزيغ والشذوذ عن التيار الاجتماعي الخلقي العام، ومبادئ الدين الحنيف[14]، وإن لم يكن بعضهم زنديقاً في الحقيقة.

(12) الحيوان 1/ 55- 56.
(13) الحيوان 1/ 57.
(14) انظر الأغاني 13/ 279 و 14/ 486 وضحى الإسلام 1/ 146 و 154.

obeikandl.com

ولعل المعري قد ذهب إلى كل هذا حين تحدث عن الزنادقة في رسالة الغفران؛ وأدخلهم جميعاً في نار جهنم؛ مثلهم في ذلك مثل الوليد بن يزيد المستهتر؛ ومنهم أبو نواس ودعبل الخزاعي وبشار بن برد وصالح بن عبد القدوس، وإذا كان المعري قد توسع في مفهوم الزندقة فشمل بها المجان والملحدين فإنه لم يذكر فيهم ابن المقفع، وكذلك فعل ابن النديم محمد بن اسحاق (ت 438هـ/ 1047م)[15].

فالزندقة بهذا المعنى ملتصقة بالفسق والفجور وكلاهما مرتبط بشرب الخمرة كما يقول أحد الشعراء واصفاً نفسه[16].

اسقني بالكبير إني كبير إنما يشرب الصغير الصغير
لا يغرنك يا عبيد خشوعي تحت هذا الخشوع فسق كبير

وأفرط بعض الشعراء في الفجور والإباحة، وجهروا بالقول، وربما وصل بعضهم إلى درجة السخرية من بعض المبادئ الدينية كما في قول بشار[17]:

لا خير في العيش إن كنا كذا أبداً لا نلتقي وسبيل الملتقي نهج
قالوا: حرام تلاقينا؛ فقد كذبوا ما في التزام ولا في قبلة حرج
إني ابشر نفسي كلما اختلجت عيني، أقول بنيل منك تختلج

من هنا ارتبطت الزندقة في هذا المعنى بمعان أخرى كالتملح والظرف والفاكهة في الفعل والقول، ولا بأس فيه عند فئة من الناس مالم يكن صادراً

(15) انظر رسالة الغفران 428- 445 والفهرست 473.
(16) انظر عيون الأخبار 1/ 260.
(17) ديوان بشار بن برد 1/ 75- 76 وانظر فيه 71.

obeikandl.com

عن مفهوم الإلحاد والشك في العقيدة الإسلامية...ولهذا شاع في العصر العباسي وصف الزنديق بالظريف؛ كما في قول أبي نواس[18]:

وصيف كأس، محدث، ولها تيـــه مــغن وظــرف زنــديق

مهما يكن رأي بعض الناس في الزندقة التي أخذت معناها من التهتك والشراب والفحش في القول والفعل تحت وطأة السكر، فإن ذلك كله يندرج في الإنسان شيئاً فشيئاً ليخرجه من دائرة الحق والصواب، ومن الإيمان إلى الإلحاد والشك، ولذلك قيل: إن علامة الزندقة شرب الخمرة، والرشا في الحكم؛ ومهر البغي[19].

ومن هنا كنا نربأ بابن المقفع العاقل ألا يخالط أمثال هؤلاء؛ لأنه اخذ بجريرتهم على المبدأ المشهور بين الناس: قل لي من تعاشر أقل لك من أنت، وإذا كنا سنتعرض لاتهام ابن المقفع بالزندقة، من بعد؛ فإننا نوضح بأن مفهوم الزندقة العلمية للأدباء والشعراء تختلف كلياً عن الزندقة المرتبطة بالمجون والاستهتار. فالمجان السكير يغلبه الشراب فينطبق بكلام فيه هجر فيتهم بالزندقة؛ بينما الزندقة العلمية قائمة على القصدية والإيمان بدين ما كالمانوية ويستر هذا الدين ثم يظهر خلافه وهو الإسلام، وهو ما ينطبق عليه مصطلح المنافق، وهذا ما يمكن أن تستشفه من خبر رواه أبو الفرج الأصفهاني، وأسنده إلى أبي نواس فقال: حدثني أبو نواس قال: كنت أتوهم أن حماد عجرد

(18) ديوان أبي نواس 450 وانظر ثمار القلوب 176- 177.
(19) ضحى الإسلام 1/ 150.

obeikandl.com

إنما رمي بالزندقة لمجونه في شعره؛ حتى حبست في حبس الزنادقة؛ فإذا حماد عجرد إمام من ائمتهم[20]. ولهذا كله صارت الزنادقة قرينة الفجور والتهتك قولاً وفعلاً، وكل منهما شقيقة للأخرى وكلتاهما شقيقة للشك والإلحاد، وهو معنى آخر أخذته الزندقة، وهي زندقة أقرب إلى العلمية والفكرية لأنها وعي مسبق، كما سيتضح لنا بعد قليل. ولا بأس أن نؤيد ذلك بشعر لحماد عجرد يرد فيه على يحيى بن زياد حين رماه بالزندقة لتهتكه؛ قال فيه[21]:

لا مؤمن يعرف إيمانه ... وليس يحيى بالفتى الكافر
منافق ظاهره ناسك ... مخالف الباطن للظاهر

الزندقة تعني الشك والإلحاد:

عرف هذا المعنى للزندقة نتيجة تأثر العرب بغيرهم؛ على الأرجح لما ورد في كتاب (المعارف) حين تحدث عن أديان العرب في الجاهلية فقال: وكانت المجوسية في تميم؛ منهم زرارة بن عدس التميمي، وابنه حاجب ومنهم الأقرع بن حابس؛ وكان مجوسياً وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة[22]. ولهذا يقول أحمد بن يحيى: ليس في كلام العرب زنديق فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة؛ قال ملحد ودهري[23]. فالزندقة استعملت في الإلحاد على العموم؛ وعكسها الإيمان؛ قال المعري: الزنادقة هم اللذين يسمون الدهرية؛ لا يقولون

(20) الأغاني 14/ 324.
(21) الأغاني 14/ 334.
(22) المعارف 261 وانظر رسالة الغفران 429 وفجر الإسلام 108.
(23) انظر اللسان (زندق) وفجر الإسلام 108.

obeikandl.com

بنبوة ولا كتاب[24].

فكل من جحد الأديان السماوية من الناس صار يطلق عليه زنديق، مما جعل الزندقة تحمل معنى الدهرية والإلحاد والشك في وقت واحد، والزندقة في هذا المعنى لا تكون إلا عن نظر وفهم؛ وعقل، فسلطان العقل وصل إلى غايته لديهم يحمل في كل شيء، وأصحاب سلطان العقل لا يؤمنون إلا بما يرونه بأم أعينهم، من هنا نبذوا الأديان؛ وصارت الحياة همهم؛ فما الحياة إلا خمر وما إليها، لا يرضون أن يجهد عقولهم في تفكير في دين؛ إنما يغضبون على الدين وقت أن يتعارض مع شهواتهم ويحد من لذاتهم[25]. وإذا كنا نبرئ ابن المقفع من تهمة الشك والإلحاد والدهرية على الرغم من أنه احترم العقل وأنزله منزلة رفيعة في حياته وشؤونه؛ فإنه بقي متزناً رزيناً لم يقبل على متع الدنيا بالشكل الذي ينفي عنه مروءته كما فعل غيره. وعلى الرغم من هذا فإن الزندقة التي تعني الشك والألحاد تعد مما وصمه به بعض أعدائه وخصومه قديماً وحديثاً؛ ولا سيما حين جعل العقل ميزاناً لكل عمل يختص به؛ وإن ارتبط عنده بالإيمان والخلق.

ويبدو أن التهمة بالزندقة وفق هذا المعنى المشار إليه صارت تهمة قاتلة من دون شك فيكفي للأديب الصديق أن ينقلب على صديقه لأمر ما؛ ثم تكون بينهما جفوة فأول ما يرميه به أنه زنديق كالهجاء بين بشار بن برد وحماد عجرد[26]، وهذا مثال تبعه أمثلة كثيرة عند أحمد آمين وغيره. ومن هنا يصبح هذا المعنى

(24) رسالة الغفران 429.
(25) انظر ضحى الإسلام 1/ 155- 156 وانظر الفهرست 457.
(26) أمالي المرتضى 1/ 136 وانظر ضحى الإسلام 1/ 156- 157 وأمراء البيان 104.

obeikandi.com

أخطر المعاني التي لصقت بالزندقة، فهي أداة سهلة لرمي الأخر بها، وهذا ما حدث لابن المقفع، كما نراه في أسباب اتهامه بالزندقة، ولم ينقذه منها ما توافق القدماء والمحدثون عليه من صفات خلقية؛ قربته من مبادئ الدين الحنيف، ولما أسلم زاد حسناً على حسن.

أسباب اتهامه بالزندقة

الزندقة بين التأييد والمعارضة:

تبين لنا من مفاهيم الزندقة التي عرفت عند الخاصة والعامة أنها ألصقت بابن المقفع على اعتبار أنه يعتنق الإسلام ظاهراً والمانوية باطناً، فهو على دين قومه ويحن إليه ويتعصب لهم قولاً وفعلاً، ويستهتر بالعرب ويسخر منهم، إنه زنديق كما يزعم بعض الدارسين من القدماء والمحدثين؛ أمثال القاسم بن إبراهيم (ت 246هـ/ 860م) والجاحظ (ت 255هـ / 869م) وأبي الفرج الأصفهاني (ت 356هـ / 967م) وغيرهم، وقد احترز الشريف المرتضى (ت 436هـ / 1044م) لنفسه؛ فبعد أن ساق أقوال الآخرين في زندقته وصفه بأنه رقيق الدين وكان ابن المقفع مع قلة دينه جيد الكلام[27]، وكأنه وجد الزندقة أمراً خطيراً تكال للناس؛ بينما لم يجد هذا بعض المحدثين مثل عبد اللطيف حمزة والمستشرق غبرائيلي. وهناك من رأى أنه صورة للشاب العاقل المتفتح الذي دفعه عقله إلى الإسلام في وقت متأخر من حياته التي لم يعمر فيها طويلاً، ولكنه لم يبلغ فيها مرتبة الكمال عقيدة وثقافة ومنهجاً، على ما يملكه من طموح

(27) أمالي المرتضى 1/ 136.

obeikandi.com

وإرادة، ورغبة في النهوض بأمته الإسلامية العتيدة. فإذا كان قد ترجم العديد من الآثار يوم كان على دينه المانوي القديم فأنها قد ضاعت أو إنه أتلفها على رأي آخر، بعد أن تيقن بفساد بعض ما ورد فيها، أما ما صحت مادته وأيقن بصلاحه للنهوض بأمته في مجال السياسة والخلق الاجتماعي فقد أخذ يروجه بين الناس، فضلاً عن أنه يحاول إثبات وجوده في صناعة الكتابة في دواوين الولايات، باعتبارها تحمل وجهاً اقتصادياً مرموقاً.

وخلاصة الأمر أسلم الشاب متأخراً على يد عيسى بن علي سنة (132هـ) عند العديد من القدماء والمحدثين، وحسن إسلامه، مما يؤيد عدم زندقته.

ومن ثم عضد دينه عقله فأعطى كل أمة حقها من الصفات التي تستحقها، من دون تعصب لبني جنسه من الفرس؛ وفضل العرب فيها على غيرها، ولم يكن هذا منه إلا على سبيل إحقاق الحق بما يتصف به من عقل ومنهج موضوعي، وإن لم يكن يتنكر لفارسيته، ويعد أحمد بن طيفور (204 - 280هـ /819 - 893م) الخرساني المؤرخ الأديب من أبرز ما نقل أخباره وتحدث عن آثاره، ونافح عنه؛ ومثله محمد بن عبدوس الجهشياري (ت 331هـ / 943م) وابن عبد ربه (328هـ / 940م) والباقلاني (402هـ / 1011م) وأبو حيان التوحيدي (ت 400هـ / 1010م) وأبو العلاء المعري (ت 449هـ / 1057م) وابن النديم محمد بن اسحاق (ت 438هـ / 1048م). ومن المحدثين خليل مردم بك ومحمد كرد علي وأحمد أمين وبروكلمان ومحمد سليم الجندي وغفراني محمد غفراني.

أهم أسباب اتهامه بالزندقة:

لما كان ذلك كذلك كان علينا أن نناقش الأمر في زندقته وفق توزعها على الأسباب التي أدت إلى اتهامه بها؛ والوصول إلى الرأي العلمي الموضوعي فيها؛ وإبرازها:

1. اتهامه بالحنين إلى ديانته المانوية:

أوردت جملة من الكتب القديمة خبراً وحيداً رواه عمر بن شبه (ت 262هـ / 868م) في غير مرجع منها[28]، ثم حمله الناس وأشاعوه عليه، على اعتبار أنه غدا حقيقة ثابتة يدل على حنينه إلى دين المجوس دين أبائه وأجداده؛ ممثلاً بالمانوية، في الوقت الذي يوحي بتحسره على الفرس الذين طواهم المجد، وإذا كان ابن قتيبة (ت 276هـ / 882م) أول من أشار إلى الخبر بلا إسناد، فإن ابن الثعالبي (350 - 429هـ / 961 - 1039م) يعد أول من وضح أن ابن المقفع لم يكن وحيداً حين مر ببيت النار، ولكنه لم يسند خبره هو الآخر، فبعد أن ذكر بيتي الأحوص اللذين سنذكرهما بعد قليل قال: ويحكى أن كلاً من يحيى بن خالد وابن المقفع مر ببيت النار، فأنشد البيتين، وهما من قصيدة طويلة أنشد فيها الأمير.[29] فالملاحظ في الخبر أن هناك رجلين فمن الذي أنشد؟!!

أما الشريف المرتضى: علي بن الحسين (355 - 436هـ /966 - 1044م) نقيب الطالبيين؛ وأحد الأئمة في علم الكلام والأدب والشعر ويقول بالاعتزال

(28) انظر ترجمة عمر بن شيبة في الفهرست 163 ومعجم الأدباء 6/ 60 – 62 والأعلام 5/ 47- 48.
(29) ثمار القلوب 316 وانظر عيون الأخبار 1/ 51 ولم يرد إلا البيت الأول.

obeikandl.com

فهو أول من ذكر الخبر مسنداً إياه إلى عمر بن شبة (دون أن يشير إلى يحيى بن خالد) وبين عمر وابن المقفع أكثر من مائة سنة؛ ثم نقل الخبر عن الشريف من جاء بعده كعبد القادر بن عمر البغدادي (1030 - 1093هـ / 1620 – 1682م)؛ وتمامه : روى ابن شبة، قال: حدثني من سمع ابن المقفع، وقد مر ببيت نار المجوس بعد أن أسلم، فلمحه، وتمثل:

يا بيت عاتكة الذي أعتزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأميل[30]

والبيتان من القصيدة للأحواض بن محمد يمدح فيها عمر بن عبد العزيز، وبداية مطلع البيت الثاني (أصبحت أمنحك ...)[31].

فإذا تركنا ابن شبة؛ (وشبة أسمه زيد بن عبيدة)؛ وأهملنا سنة وفاته (262هـ / 876م) فإننا نتساءل: من ذاك الرجل الذي حدثه؟ ما اسمه؟ وأين سمع ابن المقفع؟! ومتى؟ ومن ثمة فإننا نرى أن الشريف المرتضى قد ساق الخبر من قبيل الأمانة العلمية لما وصل إليه، ولم يكن يؤمن بزندقته وإن وصمه بقلة الدين؛ وقلة الدين ليست زندقة، على حين نجد أن بعض المحدثين كالدكتور شوقي ضيف قد اقتنعوا بالخبر، إذ شرع الدكتور ضيف يفند رأي الأستاذ أحمد أمين؛ ويعرض لسلطان العقل عند ابن المقفع وحده دون أن يراعي الصفات الأخرى لابن المقفع، وكلها تنفي عنه إيمانه بالمانوية أو الحنين إليها بعد أن

(30) خزانة الأدب 3/ 459 وانظر زهر الآداب 1/ 245.
([31]) شعر الأحوص 166 وهما القصة في ثمر القلوب 316.

obeikandl.com

أسلم، فقال: وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أنه ظل على اعتقاده المانوي القديم؛ فهو يظهر الإسلام ويضمر مانويته[32]. أما الدكتور عبد اللطيف حمزة الذي ألف كتاباً بعنوان (ابن المقفع) سنة 1941م فقد طار بخبر زندقة الرجل، وخص بها فصلاً كاملاً لها، ومزجها بعبيته لبني جنسه من الفرس[33]. وكان بهذا متأثراً بما فعله غبرائيلي وبما قاله طه حسين (ت 1973م) عن زندقة الرجل، كما فعل في كتابه (من حديث الشعر والنثر) المنشور في القاهرة سنة (1936م)[34] أو في المقدمة التي نشرت مع مقدمة أخرى لعبد الوهاب عزام لكتاب كليلة ودمنة (مقدمتا كليلة ودمنة) - دار المعارف بمصر - سنة 1941م. وسنترك سكوت المستشرق براون عن مناقشة زندقة ابن المقفع، وما عرضه إقبال عباس في (شرح حال عبدالله بن المقفع) المنشور سنة (1926م) وعرض لشؤون عدة، مثل كتاب (الرد على الزنديق)؛ وما جاء عند محمد كرد علي في (أمراء البيان) وما أورده أحمد أمين في (فجر الإسلام) و (ضحى الإسلام) وما قاله محمد سليم الجندي في كتابه (عبدالله بن المقفع) المنشور بدمشق سنة (1936م)[35]. سنترك ذلك كله لنتوقف عند ما تعتقد به المانوية نفسها كما روي في الكتب القديمة والحديثة، فقد أثبت الجاحظ في (الحيوان) وأبو الفتح الشهرستاني (479 - 548هـ/ 1086 - 1153م) في كتابه (الملل والنحل)، ونقله عنهما وعن غيرهما أحمد أمين في (فجر الإسلام) فقال: وقد كان ماني راهباً بحران؛ فرأى أن امتزاج النور بالظلمة في هذا

(32) العصر العباسي الأول 509.
(33) انظر الفصل الخاص (زندقة ابن المقفع) ولا سيما 68 وبعد 87- 88 من ابن المقفع.
(34) انظر حديث الشعر والنثر 46-47.
(35) انظر أمراء البيان 104- 108.

openkandil.com

العالم شر؛ ومن أجل هذا حرم النكاح حتى يستعجل الفناء؛ ودعا إلى الزهد؛ وشرع الصيام سبعة أيام أبداً في كل شهر، وفرض صلوات كثيرة؛ يقوم الرجل فيمسح بالماء ويستقبل الشمس قائماً، ثم يقوم ويسجد وهكذا؛ اثنتي عشرة سجدة؛ يقول في كل سجدة دعاء؛ ونهى أصحابه عن ذبح الحيوان لما فيه من إيلام[36]. وقال أيضاً في كتابه (ضحى الإسلام): فكانوا يرفضون الذبائح، ويبغضون إراقة الدماء، ويزهدون في أكل اللحوم[37]. وما من عاقل ينظر في حياة ابن المقفع وسيرته إلا عرف – من دون غموض أو لبس – أنه تزوج وأنجب، واستمتع بحياته طعاماً وشراباً؛ بل أخذ عليه أنه كان يعاشر بعض الأدباء المستهترين كبشار بن برد ومطيع بن إياس، حتى ألصقت تهمة الزندقة به من هذا الاتجاه؛ كما سنعرض له، ومن ثم لم يطف في البلاد داعياً إلى المانوية بل استقر في أماكن عمله، فإذا تذكرنا أنه كان يفتش عن دين يقنعه ووجد في الإسلام حاجته؛ وإذا أضفنا إلى هذا ما كان يتصف به من خلق كريم وفضائل عليا أيقنا بأن الخبر الذي رواه ابن شبة ليس صحيحاً، ولم يكن يعتنق الإسلام ظاهراً والمانوية باطناً؛ كما يفعل أهل النفاق، ولو سلمنا جدلاً بصحة الخبر ـ وهذا محال من كل وجه ـ فلعله قد وقع في بداية إسلامه يوم لم يتمكن الإسلام في نفسه؛ فلا زال يعيش في تردد وتفكير؛ وهذا شأن كل من جعل العقل حكماً على كل شيء، ولعل نستدل على ما نذهب إليه فيما رواه صاحب (الاحتجاج) على اجتماع ابن المقفع ببعض من عرف بالمروق والمجون، فروى عن هشام بن الحكم قوله: اجتمع ابن أبي العوجاء، وأبو شاكر

(36) فجر الإسلام 105 وانظر الحيوان 4/ 428- 433 والملل والنحل 109- 120 والفهرست 456- 457.
(37) ضحى الإسلام 1/ 154 وانظر الفهرست 457 ومروج الذهب 1/ 250- 251.

obeikandl.com

الديصاني الزنديق، وعبد الملك البصري، وابن المقفع عند بيت الله الحرام يستهزئون بالحجاج ويطعنون بالقرآن كله؛ فإن في نقض القرآن إبطال نبوة محمد، وفي إبطال الإسلام؛ وإثبات ما نحن فيه؛ فاتفقوا على ذلك. فلما كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام فقال ابن أبي العوجاء: أما أنا فمفكر في هذه الآية (فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا) (يوسف 12/ 80) فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً، فشغلتني هذه الآية عن التفكير في سواها. فقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً، ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) (الحج 22/ 73). ولم أقدر على الإتيان بمثلها. فقال أبو شاكر: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) (الأنبياء 21/ 22) لم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال ابن المقفع: يا قوم !! إن هذا القرآن ليس من جنس البشر؛ وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية؛ (وقيل يا أرض أبلعي ماءك، و يا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل: بعداً للقوم الظالمين)(هود 11/ 44) لم أبلغ غاية المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

فبيناهم في ذلك إذ مر بهم جعفر بن محمد الصادق(ع) فقال: (قل لأن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (الإسراء 88/17)، ثم تفرقوا مقرين بالعجز[38]. فلو آمنا بصحة الخبر

(38) الاحتجاج 2/ 143 عن (يا أهل الكتاب 100- 102).

obeikandi.com

ـ على اعتبار مشكوك فيه لمعاداة بعض الشيعة ابن المقفع لقيامه بخدمة العباسيين أعدائهم ـ فلعله يؤيد حالة الاضطراب التي كانت تحيط بابن المقفع في مراحل إسلامه الأولى، على الرغم من أنه كان يسلم بأن القرآن الكريم ليس من جنس كلام البشر، فهو الأديب المدرك لأساليب العربية وبلاغتها في الوقت الذي كان قادراً على التميز بين ما هو بشري وما هو إلهي. وأياً كان الأمر فنحن نأخذ ولله يتولى السرائر؛ علماً بأنه ممن أخذ نفسه بالمثال الأرحب للأخلاق فاكتمل خلقه بحسن إسلامه ولم يترك شعيرة من تعاليم الدين، حتى لو اجتمع بالمجان من الأدباء، وكان عقله يوالي إيمانه بالإسلام. وقد يقول قائل: إن بعض معاصريه اتهمه بالزندقة؛ فهل جاء اتهامه له بها من فراغ؟...هذا ما نوضحه في السبب الثاني.

2 -اتهام بعض معاصريه له بالزندقة:

لعل الرواية الوحيدة المنقولة عن أحد معاصريه كانت من قبل سفيان بن معاوية بن يزيد المهلب والي نيسابور، ثم والي البصرة من بعد، وكان بينهما جفاء ثم عداء وخصومة ومن ثم ترصد له لغرض سياسي يتعلق بكتاب الأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي[39]. وقد ذكر ابن خلكان في (وفيات الأعيان) عدداً من الروايات لكيفية قتل سفيان لابن المقفع، اشتملت إحداها ـ وهي رواية المدائني ـ على اتهامه بالزندقة فقد قال بعد تقطيعه إرباً إرباً وإلقاء كل عضو منه في تنور مسجور: ليس علي في المثلة بك حرج؛ لأنك زنديق، وقد أفسدت

(39) انظر أمالي المرتضى 1/ 136 ووفيات الأعيان 2/ 152 والأعلام 4/ 140.

openkandil.com

الناس[40].

فمنهج المدائني (علي بن محمد: 135ـ 225هـ/ 752 ـ 840م) في كتبه التاريخية يعتمد على التوسع في الخبر والروايات؛ علماً أن روايته هي الوحيدة التي اشتملت على تعليل لفعل سفيان المذكور، ولو افترضنا جدلاً صحة الرواية ـ وقد تكون صحيحة ـ فهي تنبئ بالشهادة المجروحة لسفيان والي البصرة، وكان سفيان يتوعده بشرّ مستطير إن نال منه، فهو ما يزال في مأمن مادام في حماية أعمام الخليفة من آل علي[41]، فلما جرت المقادير وفق ما يشتهي سفيان شفى إربته منه بتلك الطريقة البشعة في القتل، ولما استشعر عظمة ما يفعل بهتك حرمة رجل مسلم فمثل بجثته، ثم حرقه عضواً عضواً في تنور يتأجج ناراً نعته بالزندقة؛ لئلا يفسد الناس عليه ويثيرهم على الكراهية والحقد نحوه. فالزندقة ـ بما تعنيه لدى العامة من الشك والإلحاد، والاستهتار بالقيم الاجتماعية ـ أعظم دليل على النيل من ابن المقفع، من دون حرج أو جريرة.

وقد أحسن سفيان استغلالها فنال من ابن المقفع، فوصل إلى ما يريد بأقصر الطرق، ومن ثم عضد فعله هذا أمر الخليفة بشأنه، فارتاح لصنيعه، من دون تأنيب أو لوم، وحين رغب عيسى بن علي في الثأر لابن المقفع اختفى دون أن يعلم به أحد، لهذا أصبحت تهمة الزندقة كافية وحدها للتخلص من أعداء الدولة، أو من أي إنسان غير مرغوب فيه، وهذا ما شهدناه بمقتل المهدي لبشار كما سيأتي.

(40) وفيات الأعيان 2/ 153 وراجع الحاشية 87 من الفصل الأول.
(41) راجع ما تقدم من الفصل الأول الحواشي التالية 45و47 و48و83و خاصة 84و85.

obeikandl.com

وأخيراً نتساءل: إذا كانت شهادة سفيان بزندقة ابن المقفع هي الوحيدة في عصر ابن المقفع فمن أين جاء الدكتور شوقي ضيف بلفظ الجمع الذي يؤيد تلك التهمة، حين قال: ولا ينفي هذا الشك عنه زندقته. فقد شهد بها معاصروه، ومن تلاهم ممن قرأوا كتاباته[42]. وأكد مقولته في مكان آخر[43]. فمن يتعقب أقوال معاصريه فلن يحظى إلا بمقولة سفيان بن معاوية ـ إن صحت ـ وهناك مقولة أخرى للخليفة المهدي محمد بن عبدالله المنصور (127ـ 169هـ/ 744ـ 785م) تقع في سياق آخر، من الأسباب كما سنذكره بعد قليل.

ولهذا يبقى من معاصريه شخص واحد وهو سفيان، أما من جاء بعده فإنما يعود إلى زمن متأخر جداً؛ حتى يأتي القاسم بن ابراهيم (ت 246هـ /860م).ولعل هذا كله ينقلنا إلى كلمة المهدي في آثار ابن المقفع التي تمثل عندنا سبباً آخر لإشاعة الزندقة عليه.

3 -اتهام المهدي لمؤلفات ابن المقفع بأنها أصل الزندقة:

اتفق كثير من القدماء والمحدثين على أول كلمة مدوية وصمت آثار ابن المقفع المترجمة بأنها سبب في انتشار الزندقة بين الناس عامة وأبناء فارس خاصة إنما هي كلمة الخليفة المهدي التي رواها الشريف المرتضى فقال: فأما ابن المقفع فإن جعفر بن سليمان روى عن المهدي أنه قال: ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع[44]. وقد يكون هذا دقيقاً على اعتبار أن ما ترجمه من الآثار

(42) العصر العباسي الأول 510 وراجع الحاشية 88 من الفصل الأول.
(43) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي 137.
(44) أمالي المرتضى 1/ 134- 135 ونقل عنه الخبر البغدادي في خزانة الأدب 3/ 460.

obeikandl.com

الفارسية قد حوى شيئاً غير قليل من معتقدات فاسدة؛ أو أنها شجعت بعض العقول المنحرفة على الضلال والعصبية، وكان الجاحظ قد ذكر أن ابن المقفع وسهل بن هارون وأبا عبيد الله وعبد الحميد، وغيلان وغيرهم صنفوا أو أوجدوا الرسائل الفارسية بأيدي الناس؛ فضلاً عن أن هناك رجلاً يسمى المقنع الخرساني ظهر يدعو إلى المجوسية في بخارى وسمرقند وقضى عليه المهدي[45].

فإذا أهملنا تشابه اللفظ بين المقنع والمقفع فإننا لا نهمل بيان قدم الزندقة؛ فهي كما أشرنا إليها من قبل موجودة في قريش، ثم اختلطت معانيها وتوسعت حتى أطلقت على كل مستهتر وشاك وملحد قبل أن يأتي ابن المقفع وينقل الآثار الفارسية، فخالد بن عبد الله القسري كان يرمى بالزندقة، وكذلك الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية؛ ثم قاوم المنصور الرواندية مقاومة فعالة باعتبارهم أعداء للدولة[46].

فإذا كنا نرى أن ابن المقفع ترجم جملة من الآثار يوم كان على دين المجوس؛ دين ماني؛ وشاع أمرها بين الناس؛ ولا سيما تلك التي تعرض للعقائد؛ بدافع إثبات قدرته على صناعة الكتابة، وإبراز ثقافته الموروثة وفق ما يراه عقله لإعادة كتابة التاريخ أو لوضع منهج تاريخي شامل لمثل هذا التاريخ فإنه أساء من حيث لم يقدر التقدير الصحيح نتيجة ما ستحدثه ترجماته في الناس من آثار سلبية وإن كان أتلفها فيما بعد.

ولهذا فإننا نقف جنباً إلى جنب مع الخليل بن أحمد الفراهيدي (100 ـ 170هـ

(45) انظر البيان والتبيين 3/ 29 ودراسة في الشاهنامة 281.
(46) انظر فجر الإسلام 106 و 108 ودراسات في الشاهنامة 281 وحاشية 13 من مدخل الفصل الأول، وحاشية 82 مما يأتي.

openkanal.com

/ 718ـ 786م) أحد كبار أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض وكان قد سمع بابن المقفع، وهذا قد سمع به؛ وأحب كل منهما أن يجتمع بالأخر،ولما اجتمعا وتحادثا ثلاثة أيام ولياليهن؛ قال الخليل فيه: ما رأيت مثله وعقله أكثر من علمه[47]. فعقل ابن المقفع على علو كعبة في الذكاء والفطنة والحفظ لم يكن مكتملاً وهو لا يزال في ريعان الشباب، ولهذا صارت ترجماته الفارسية المتنوعة سبباً في أصل الزندقة وانتشارها كما انتهى إليه المهدي، ونحس بأن ترجماته اشبهت كرة الثلج التي كبرت وعظمة كلما دارت بين الناس؛ وكذا هي كلمة المهدي التي حملت على غير وجهها الحقيقي، فاتهم ابن المقفع بسببها بالزندقة التي اتسع انتشارها؛ ولا سيما بين أبناء فارس؛ ساعدها على هذا إطلال الشعوبية برأسها في المجتمع الإسلامي. والعيب لا يكمن في مقولة المهدي، وإنما يكمن فيمن تقولها على ابن المقفع في باب الزندقة. ولهذا كله نفهم دلالة كلمة المسعودي حيث يقول: أمعن المهدي في قتل الملحدين لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان و مرقيون مما نقله ابن المقفع و غيره، وترجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية[48]. ونخلص من ذلك كله إلى أن المهدي لم يتهم ابن المقفع بالزندقة؛ وإلى أن ابن المقفع لم يكن مؤسساً لها في أرض الإسلام ولكن سوء تقدير عقل هذا الشاب أوقعه في شرك كان يغنى عنه لو أجال النظر كثيراً فيما فعل، ولكن ما قدر كان، ثم تلقف بعض مناوئيه قدماء ومحدثين عبارة المهدي وساروا بها على أنها دليل على زندقة ابن المقفع، ونحن لا نرى فيما قام به عيباً مثله في ذلك مثل عدد من المترجمين الأخرين، ولكنهم

(47) خزانة الأدب 3/ 459 - 460 وراجع حاشية 70- 71و 72 من الفص الأول.
(48) مروج الذهب 4/ 242.

obeikandl.com

لم يوصفوا بالزندقة، فالعيب فيمن تصفح تلك الآثار من أهل الملة وتأثر بها أو اعتنقها، كل من أضله الله من منتحلي العلوم وجادلوا عنها[49]. فابن المقفع الشاب الذي أسلم، وتابع مشروعه الثقافي في ترجمة ما يعرفه من ثقافة القدماء كان يضع نصب عينيه مشروعاً حضارياً يرى فيه الصلاح للأمة ولكنه لم يكن يدري أن مؤلفاته ستفتح باب الطريق ليس إلى الانحراف الديني والفكري فقط، وإنما إلى معركة فكرية نقدية ما تزال إلى يومنا هذا، ومن هنا يصبح لزاماً علينا أن نتحدث عن آثاره التي جعلت مناوئيه وبعض المتعصبين يتخذونها لتلبية أغراضهم الخاصة[50].

4 -آثاره تدل على زندقته وشعوبيته:

يرى العديد من القدماء والمحدثين أن آثاره المترجمة إلى العربية سواء المفقودة أم الموجودة لم تكن إلا دعوة للعقيدة المانوية خاصة ولعقائد فارس عامة، ومن ثم هي إحياء كبير لماضي الفرس المتميز بالتقدم الإداري والعمراني والاجتماعي، إنها إحياء لمدنية فارس ورفعها في وجه التقدم الحضاري العربي والإسلامي، الذي لا يزال بطيئاً؛ إن لم يكن هزيلاً[51].

ولهذا جعل مناوئوه آثاره المفقودة التي لا تعرف ماهيتها الكاملة والحقيقية سبباً للطعن في صحة دينه، واتهامه بالزندقة والعصبية، ثم أولوا بعض رسائله التي وصلت إلينا على ذلك النحو.

(49) مقدمة ابن خلدون 515.
(50) انظر ضحى الإسلام 1/ 140.
(51) انظر البيان والتبيين 3/ 29 والفن ومذاهبه في النثر العربي 110.

obeikandi.com

فكتبه مثل (مزدك) أو (الدرة اليتيمة) أو (رسالة تنسر) كلها ـ في زعمهم دعوة صريحة للمانوية خاصة ودين المجوس عامة ـ بل زعم قوم أن ابن المقفع ما ترجم كتاب (الدرة اليتيمة) وهو كتاب حكمة (لبزرجمهر) إلا معارضة للقرآن الكريم ـ ومن ثم يرى البيروني محمد بن أحمد (362 ـ 440هـ / 1048م) أن ابن المقفع ما زاد باب (برزويه) في كتاب (كليلة ودمنة) إلا قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدين، وكسرهم للدعوة إلى مذهب المانية[52].

وروى الجاحظ عن أبي بكر الأصم (ت 225هـ) أن ابن المقفع أوهنه علمه وأذهله حلمه، وأعمته حكمته، وحيرته بصيرته[53] لأنه لم يهتد إلى الحق.

ولعل من أبرز القدماء الذين أشاعوا عليه تهمة الزندقة الإمام الزيدي القاسم بن ابراهيم بن طباطبا بن إسماعيل الديباج؛ إن صح أنه ألف كتاباً سماه (كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع) إذ يرى أحمد أمين أنه ليس للقاسم ولا هو من مؤلفات القرن الثالث الهجري[54]. وقد نشر الكتاب الأستاذ ميخائيل أنجلو جويدي سنة (1927م) ثم أوضح في مقدمته أن كتاب القاسم بن إبراهيم رد على كتاب لابن المقفع في معارضة القرآن الكريم فقال: (وقد بين القاسم في أوائله أن ابن المقفع وضع كتاباً في معارضة القرآن الكريم، وعاب فيه المرسلين وافترى الكذب على رب العالمين)[55]. وقد شك أحمد كريم في صحة

(52) الفن ومذاهبه في النثر العربي 139.
(53) رسائل الجاحظ 2/ 125.
(54) انظر ضحى الإسلام 1/ 266.
(55) مقدمة كتاب (الرد على الزنديق اللعين: ص8) عن تاريخ الأدب العربي (بروكلمان). 3/ 101 وراجع حاشية 44 ـ 47 و 53 من الفصل الأول وانظر حاشية 70 ـ 73 مما يأتي.

obeikandl.com

نسبة الكتاب لابن المقفع لأنه يخالف منهجه في الكتابة[56] بيد أن هناك كتاباً اسمه (الدورة اليتيمة) نسب إليه؛ وهو ما سنناقشه بعد أن نستكمل عرض القضية؛ لنقول: ثم جاء الجاحظ فجعل ابن المقفع واحداً من الذين يصنعون الرسائل الفارسية والسير لإشاعة الشعوبية بين الأمة[57].

ومن ثم أسهم أبو الفرج الأصفهاني (ت 356هـ) في إشاعة الزندقة عليه لاستهتاره؛ ليستقر الأمر عند البيروني؛ ومن بعد نقل عبد القادر البغدادي ما وجده عند القدماء[58]. هكذا شاعة تهمة الزندقة الملتصقة بابن المقفع بين القدماء في ضوء تفسير آثاره؛ ومن ثم طار بها المحدثون بعيداً، وفي طليعتهم الأستاذ غبرائيلي الذي كتب مقالة باللغة الإيطالية حول (مؤلفات ابن المقفع) في سنة (1932م)[59] ترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوي ومن ثم نشر ذلك في كتابه (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية)؛ وقد ظهرت طبعته الثانية بالقاهرة سنة (1946م)، وكنا قد أشرنا إلى الدكتور طه حسين من قبل وغيره[60].

ونرى أن الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه (ابن المقفع) قد تطرف في أحكامه كثيراً؛ إذ أسسها على أفكار مسبقة، وتأويلات اجتهادية مثيرة. فقد أجج تهمة الزندقة وأكدها على الرجل بمثل ما عاب عليه تعصبه لقومه

(56)ضحى الإسلام 1/ 225 وقد بين صفات كتاب ابن المقفع (اليتيمة) وبأن خصائص أسلوبه تغاير أسلوب ابن المقفع، ورأى بروكلمان صحة نسبة الكتاب إلى ابن المقفع، انظر تاريخ الأدب العربي 3/ 101. وكذلك ذهب أحمد أمين إلى أن كتاب (الرد على الزنديق اللعين) ليس للقاسم بن إبراهيم فيما وصل إلينا من كتبه وما عرف عنه في ردوده المختلفة، انظر ضحى الإسلام 1/ 266.

(57) انظر البيان والتبيين 3/ 29.

(58) انظر خزانة الأدب 3/ 459 - 460 وقارنه بما ورد في أمالي المرتضى 1/ 135 - 137.

(59) ابن المقفع 94 ونقله عن الموسوعة الإيطالية مجلد 13 لعام 1932 م كما يبدو.

(60) انظر ضحى الإسلام 3/ 276 والعصر العباسي الأول 510.

obeikandl.com

من الفرس، ولم يجد له فضيلة واحدة. ومن هنا جعل مفهومه للإصلاح الاجتماعي خدمة موجهة لبني جنسه؛ ولم يكن إسلامه إلا وسيلة للتقرب من السلطان لتحقيق ذلك الهدف.

ثم رأى الدكتور حمزة ابن المقفع ما أطلق حديثه في سوق المربد عن صفات الأمم إلا ليسخر من العرب وليحط من شأنهم بأسلوب غير مباشر، لا يوحي إلا بالخبث والكيد والطعن، بينما يعلي من مكانة قومه. وإذا كنا قد ناقشنا هذه المسألة في ضوء رواية ابن عبد ربه ومن ثم التوحيدي[61] فإننا نؤكد أن الدكتور حمزة يصر على عصبية ابن المقفع لبني جلدته والتهكم من العرب، فرسالة الصحابة لم تكن أيضاً إلا طعناً في العرب ونعي تخلفهم، والتعصب للفرس، لأنه يريد أن يبعث مجدهم من جديد[62] وقد بدأ مشروعه هذا قبل أن يترجم كتاب كليلة ودمنة، فهو عنده زنديق خبيث متعصب أشد التعصب للفرس؛ وتعصبه هذا جعله يتحسر على ما آل إليه حالهم، مما دفعه إلى ترجمة تراثهم الغابر لاستنهاض هممهم؛ ثم وقع الدكتور شوقي ضيف ـ على إجلالنا له ـ في موقع قريب منه، فجعل ابن المقفع كاتباً للفرس[63]، فضلاً عن إقراره عليه بالزندقة.

ولسنا الآن في صدد الرد التفصيلي على كل رأي وتفنيده؛ ولكننا سنعرض الردود في إطارها التحليلي التاريخي، ومن ثم في ما تدل عليه آثاره وفق نظرة موضوعية محايدة، ومتكاملة تجمع بين رؤية القدماء والمحدثين.

(61)
(62)
(63)

obeikandl.com

ونرى أن هناك أوهاماً فكرية عديدة وقع فيها مناوئوا ابن المقفع قديماً وحديثاً؛ لأمور تتعلق أحياناً بالأحكام الغيابية على أثر الرجل، فضلاً عن تقليد بعض المحدثين لآراء بعض القدماء إما لقدمها، وإما لأنها استهوتهم. وكأن المنهج الذي اتبعه السيد الشريف المرتضى لم يرض شهوتهم وغرورهم، فالشريف المرتضى حمل جملة من المقولات التي لم تقنعه؛ ولكنه وازن فيما بينها، ثم نفذ إلى آثار الرجل فوصل إلى حكمه الذي أشرنا إليه من قبل؛ ويتركز في قلة دين ابن المقفع، كحال كثير من المسلمين المهملين لواجباتهم.

وهذا قد يكون لدينا مقبولاً؛ على اعتبار أن ابن المقفع لم يعش بعد إسلامه إلا نحو عشر سنوات؛ فقد أسلم سنة 132هـ وقتل سنة 142 أو 143هـ. فالشاب العاقل الذي ثقف الفارسية تاريخاً ولغة وثقافة واعتنق ديانة أهلها حتى قارب السابعة والعشرين من عمره ليس من اليسير أن يتخلى دفعة واحدة عن كل ما كان يؤمن به ويفكر فيه، ولعل هذا التصور يكشف عما ذهب إليه أبو بكر الأصم من حيرة ابن المقفع[64]. ولعل ما انتهينا إليه من قبل في حديثنا عن إسلامه؛ ثم عن كتابه المفقود (الدرة اليتيمة)[65] أو الموجود في كتاب (كليلة ودمنة) أو غيرهما[66] يثبت صحة ما نذهب إليه من براءة ابن المقفع من تهمة الزندقة، وإن لم يكن إسلامه كما هو عليه إسلام رجل الدين، ومن ثم هو بريء من العصبية بالمعنى الشعوبي العنصري الذي عرفه بعض الأفراد الآخرين، على الرغم من أنه خالط عدداً غير قليل منهم بحكم انتشارهم في

(64) انظر رسائل الجاحظ 2/ 125 وسيأتي الخبر (114- 115) وراجع ما تقدم في الفصل عن إسلامه.
(65) راجع ما تقدم 32- 42 الحديث الخاص بالدرة اليتيمة وحاشية 55- 56 و 70 من هذا الفصل.
(66) راجع ما تقدم 85 - 96 الحديث الخاص بكليلة ودمنة وانظر ضحى الإسلام 1/ 216.

openkandil.com

دواوين الدولة؛ إذ إن بداية الخلافة العباسية ذات مظهر فارسي عامة. ونعتقد بأنها كفيلة بإجلاء الحقيقة، وكشفت الغشاوة عنها، وأبرزها:

أ. ليس هناك من أحد ينكر أن ابن المقفع ترجم العديد من الكتب الفارسية القديمة المتعلقة ببني جلدته، والتهذيب والإرشاد، ابتداء بما فقد منها، وانتهاء بما وصل إلينا.

فابن المقفع أقام بترتيب حياته على منهج علمي دقيق منذ حداثة سنه، فلما وجد الثقافة ضرورة حتمية طفق يرود مجاهليها ومصادرها، وكان على دراية باللغة الفارسية فنهل مما كتب فيها، ومن ثم وجد نفسه وقد بلغ من العقل ما بلغ أن يتعلم العربية، ويحفظ آدابها وعلومها، وكان يوم ذلك قلبه فارغاً من مفهوم الدين الصحيح، لأنه ورث المانوية عن أبيه وقومه.

ولهذا وضع هدفه الطموح لترجمة ما يراه مناسباً في حدود ما يعقل ويراه ملبياً لصناعة الكتابة، وتثقيف الكاتب ككتاب (مزدك) الذي أفاد منه الجاحظ ونظام الملك[67]. بل إننا نذهب أكثر من ذلك؛ فالشاب الطموح كان يراوده وضع مشروع تاريخي للبشرية، ولم يجد في إطار معارفه، وقدراته العقلية إلا الثقافة الفارسية وما ترجم إليها من الأمم الأخرى. فأسرع يغرف منها، فكانت كتبه المتعددة ابتداء من أول كتاب له كما نعتقد وهو كتاب (خداي نامه) ثم (آيين نامه) وغيرهما ثم ترجم من الفارسية القديمة (كليلة ودمنة) وهو من أصل هندي، وإن أضاف إليه ما أضاف، وكان آخرون غيره قد ترجموا كتاب

(67) انظر رسائل الجاحظ 2/ 122 وتاريخ الأدب العربي (بروكلمان) 3/ 97- 98 وراجع حاشية 35- 36 من الفصل الثاني.

obeikandl.com

(خداي نامه)[68]. ولم يختلف هو من غيره من المترجمين المعروفين، فقد التقوا أحياناً، وافترقوا أحياناً أخرى، وإن فاقهم في تصوره المنهجي لكتابة التاريخ الذي يبدأ مع بداية الخلق والزمان، ولا شيء أدل على هذا من أن الفردوسي اعتمد على كتبه التي وصلت إليه، وكان بعضها قد وصل إلى ابن قتيبة من قبل واستمد منها كثيراً من معلوماته، ولم يخطر ببالهما أن ينعتاه بالزندقة وإن كان ابن قتيبة قد روى خبر حنينه إلى دين المانوية، كما تقدمت الإشارة إليه؛ فضلاً عن أن الجاحظ قد اعترف بتقدمه في الأدب[69].

ولهذا نقول: لا يمكن لأي كاتب أو باحث أن يكون إلا ذاته وثقافته، ولا يمكنه أن يتنكر لأصوله الفارسية وثقافتها، وهو لم يعرف غيرها آنذاك، ولم تكن قدراته العقلية على اتصافه بالتميز بها كافية لتقدير الأشياء تقديراً دقيقاً؛ ومن ثم وضعها في الموضع اللائق والدقيق فقدمها للناس قبل إسلامه على ما يراه يخدم ذاته ووضعه الاجتماعي، ولما كان علمه أكبر من عقله ـ كما نوهنا به من قبل ـ كانت توجهه نزعة إصلاحية أخلاقية مثالية؛ مما جعله يؤلف (الأدب الكبير والأدب الصغير) وغيره؛ بل أن النزوع العقلي الإصلاحي المثالي نحا به إلى عرض مكامن الفساد في المجتمع والدولة، فوجد أن الجهل مصدر أمراض الرعية، ولا علاج له إلا بالعلم والمعرفة؛ ومحاسبة النفس على التقصير والكسل، ورأى أن الظلم والاستبداد مصدر أمراض الحكم ولا علاج لها بغير العدل والمشورة، واختيار البطانة الصالحة ومتابعة

(68) انظر تاريخ الأدب العربي (بروكلمان) 3/ 102 ومن معاصريه الذين ترجموا(سير الفرس) محمد بن الجهم البرمكي، وزادويه بن شاهويه الأصفهاني، وكلاهما ترجم (خداينامك)...وغيرهما.
(69) انظر رسائل الجاحظ 2/ 122 وتاريخ الأدب العربي (بروكلمان) 3/ 102 وراجع حاشية 23- 25من الفصل الثاني.

obeikandi.com

محاسبتها، وهو ما نجده في (كليلة ودمنة) و(رسالة الصحابة). ولما أيقن بوجود الحرية الفكرية، والاجتماعية، شرع يترجم من الكتب ما يلبي نزوعه العقلي الإصلاحي، وإن كان بعض ما ترجمه أو كتبه لا يقترب من الدين في جوانب منه، أو يتطابق مع مفاهيم الإسلام العديدة، أو مع النزوع العربي القومي، مما جعل بعض القدماء يتهمونه بالزندقة أو ورقة الدين، ثم يشدد بعض المحدثين النكير عليه فيلصقون به تهمة الزندقة والعصبية لفارس، بينما لم يفكر إلا أن يقف بين حضارتين حضارة قديمة زالت وفيها بعض ما يفيد، وحضارة ناهضة لهذا نرى ابن المقفع لما بلغ من العقل ما بلغ ووصل إلى مرحلة متقدمة من النضج والإدراك، لم تعد المانوية تقنعه باعتبارها ديناً، بحث عن الدين الحقيقي فوجده في الإسلام؛ على علمه بوجود أديان أخرى كاليهودية والمسيحية، فقد دخل الإسلام قلبه واعتنقه طواعية، وإن لم يتفقه فيه كما هو عليه أهل الدين.

ومن هنا لزمته الحجة في الذب عن الملة الإسلامية، والسعي الدؤوب إلى إصلاحها على وجه يرى أنه الحق، وحيث مزق بعض ما كتبه مما كان يؤمن به كانت تلك الكتب قد انتشرت أفكارها في الأمة، مثلها مثل كتب الآخرين من المترجمين، فمن أضله الله انحرف عن الحق، وكان قد أخذ حظه من الالتقاء بمجموعة من الأدباء المستهترين، الذين أثروا في رؤية الناس لابن المقفع.

ولعل هذا ينقلنا إلى كتاب (الدرة اليتيمة) وما كتب في الرد عليه، على اعتبار أنه مما كتب بعد إسلامه، ومن ثم نشير إلى ما كتب بعد إسلامه، وكلها

تؤكد أن ابن المقفع ما اعتنق الإسلام إلا اعتناقاً صحيحاً، ولم يكن ظاهراً. وكذلك لم يكن إسلامه بسبب رغبته في الدخول إلى السلطان، ومن ثم لم يكن يقصد إفساد العقيدة الإسلامية بالدعوة المانوية، إذ لم يكن داعياً إليها يوماً، وإن حوت بعض ترجماته جملة من العقائد الفارسية في معرض كتاباته للتاريخ، كما هو كتاب سيرة (مزدك) أو رسالة (تنسر).

ما قيل في الدرة اليتيمة:

كتاب (الدرة اليتيمة) أحد آثاره الهامة التي لقيت عناية القدماء والمحدثين؛ على اعتبار أنها معارضة للقرآن الكريم، وربما قد يكون هذا الوهم قد تأكد بعد كتاب القاسم ابن ابراهيم حين رد عليه في كتابه المسمى (كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع) الذي شك أحمد أمين في صحة نسبته للقاسم، ولعله صحيح. فالقاسم مبغض لابن المقفع في المذهب، من جهة، ومن جهة أخرى كان ابن المقفع في صف العباسيين، إذ صار من الملتزمين بالولاء لآل علي عم الخليفة أبي جعفر المنصور وموطدي أركان دولته، فضلاً عن أن تدين ابن المقفع كان وسطياً، وهو ليس رجل دين كالقاسم الذي كان واحداً من أئمة الزيدية، فابن المقفع يأخذ من الدنيا أشياء كثيرة من المتع، ولم ينس الآخرة، مما يجعله بعيداً عن موقف القاسم، ومن ثم يكون بعيداً جداً عن صفات المانوية، فالرجل في صفاته وأخلاقه وعاداته يخالف كل مبادئ المانوية الزاهدة في الحياة؛ وما زهدها في المتع إلا في استعجال الفناء، دون الإيمان في

الأخرة.[70]

ولهذا كله فنحن نحترس من اتهام القاسم له بالزندقة؛ إن صحت نسبة كتابه إليه؛ ونسبة (الدرة) إلى ابن المقفع، وبأنه معارضة للقرآن فما يزال مفقوداً. فإذا كان قد وصل إلى القاسم وبنى حكمه عليه فإنه قد وصل إلى القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (338 ـ 402هـ/ 950 ـ 1013) الذي انتهت إليه رياسة مذهب الأشاعرة، ومن ثم نظر فيه فلم يجد أي آثر لمعارضة القرآن، ولعل تخرصات بعض القدماء على ابن المقفع في هذا الشأن دفعته ـ وهو المتشدد في الحق والدين ـ إلى القول فيهم (بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع، ولو كان بقس على اشتباه الحال عليه لم يخف علينا موضع غفلته، ولم يشتبه لدينا وجه شبهته). وسبق أن قال: (وقد أدعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة وهي كتابان: أحدهما يتضمن حكم منقولة، والآخر في شيء من الديانات)[71]. فالباقلاني يدرك أن الكتاب ترجم تحت آثر الثقافة الفارسية؛ واستشف من وراء هذا أنه ترجمه قبل أن تلزمه الحجة بالإسلام، ومن ثم العقل؛ فلما أدرك ما فيه من العقيدة مزقه، وهذا خير على خير، ولعل ما يؤيد الرأي السابق ما انتهى إليه بروكلمان؛ إذ يؤكد تأليف الكتاب ثم نسبته لابن المقفع؛ فيقول في معرض تعليقه على رد القاسم بن ابراهيم: (وهذا الرد لا يسمح بالجزم: هل صدر ابن المقفع في محاربته للإسلام عن عقيدة مانوية ثابتة، أو أنه جرى فقط على

(70) انظر ضحى الإسلام 1/ 225 - 226 وراجع حاشية 55 - 56 مما تقدم وحاشية 53 من الفصل الثاني.
(71) إعجاز القرآن الكريم 1/ 46 - 47 وراجع ما تقدم 78 - 83 وحاشية 55 -56 و 70 من هذا الفصل.

obeikandl.com

نزعته الإنسانية العامة، وإن اتصلت أيضاً بمذهب المانوية)[72] ويتضح من هذا الرأي بكل جلاء أن الكتاب ألف قبل إسلام ابن المقفع.

ونحن لا نشك بوجود الكتاب؛ وإن كان مفقوداً؛ ولعل القاسم من رد عليه، ثم قرأه الباقلاني وأثبت أنه ترجم قبل إسلامه، ووافق النزوع الذي كان عليه من قبل، وهو نزوع يبتعد عن مفهوم الزندقة، أو ما شكلها، ولا شيء يوضح لنا هذا من أن محيي الدين بن عربي وهو محمد بن علي (560 ـ 638هـ / 1165 ـ 1240م) قد فسر لنا ما اشتملت عليه أفكار (الدرة اليتيمة)، فإذا لم يصل إلينا الكتاب فقد وصلت إلينا رسائل ابن عربي، وليس فيها شيء يعارض القرآن ـ وهو رأي تقدمه به القاضي الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) ـ على الرغم من أنه فسرها تفسيراً يقرب كثيراً من مفاهيم أهل التصوف، في كتاب له بعنوان (عظة الألباب وذخيرة الاكتساب)[73]. وبناء على ذلك كله نذهب إلى أن ابن المقفع لم يكن بصدد ترجمة كتاب يعارض فيه القرآن الكريم؛ وإن وقع في كتاب الدرة اليتيمة ما يفيد ألوان من التشبيه في القرآن[74] ولم ير الباقلاني فيها بأساً، ومن ثم فإنه من بعد إسلامه وجد ذلك ضرباً من المستحيل؛ إذ صح الخبر الذي أوردناه من قبل في رواية صاحب الاحتجاج، وهو ليس بصحيح، مما يؤكد أن فكرة معارضة القرآن دعوى باطلة، وكذلك دعوى الزندقة.

بل لو كان الخليفة أو غيره شعر بزندقته أو تعصبه لفارس لما أفلت من العقاب،

(72) تاريخ الأدب العربي (بروكلمان) 3/ 101.
(73) المرجع السابق 3/ 99 وانظر ثمار القلوب 199- 200 و راجع 78- 83 من الفصل الثاني.
(74) المرجع السابق3/ 101.

obeikandi.com

وآثاره الباقية تؤيد براته من كليهما؛ إذا قرئت قراءة موضوعية محايدة ونزيهة، فبعد التمعن فيها لا يوجد كلمة واحدة تؤيد زندقته.

ولعل ما تقدم من حديث عن (رسالة الصحابة؛ أو كليلة ودمنة) أو مفاضلته بين الأمم كاف[75] ولكنه يحملنا أمانة الإشارة السريعة إلى حقيقة هامة تتصل بعقاب الخلفاء والولاة للزنادقة والشعوبيين؛ ممهدين لها بقبسة تذكر بأسماء بعض مؤلفاته الباقية، وتعرض لنص منها.

معاقبة الزنادقة والشعوبيين:

سعى ابن المقفع إلى نقل ما يراه مفيداً لحياة الناس، وتهذيب أخلاقهم؛ وتصحيح سلوكهم، فكان كالشجرة المثمرة التي حملت أنماطاً من الثمر فيه الناضج وغيره؛ مما جعله يلتفت إلى شؤون عديدة تتصف بالنزوع الإصلاحي والأخلاقي، ولعل آثاره تؤكدها الكتب التي وصلت إلينا و(رسالة اليتيمة) ورسائله الأخرى التي ضمها محمد كرد علي إلى كتابه المسمى (رسائل البلغاء)[76]. ومن رسائله الإخوانية البديعة التي توحي بنفي الزندقة عن الرجل، وتؤيد صدق إسلامه؛ وإن لم يكن وصل إلى مرتبة رجل الدين؛ شأنه شأن كثير من المسلمين قديماً وحديثاً؛ قوله: (أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذاك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لابد لزارعه من حصاده أبو لعقبه من بعده...) [77].

فأول ما تطالعنا به هذه الكلمات أنها تمتح دلالاتها وأسلوبها من القرآن

(75) راجع ما تقدم 43 -47 و 85 - 96 و 111 – 127.
(76) تاريخ الأدب العربي (بروكلمان) 3/ 97 – 102.
(77) جمهرة رسائل العرب 3/ 57.

obeikandl.com

الكريم؛ كقوله تعالى: (من عمل صالحاً فلنفسه) (فصلت 41/ 61). وهذا النص يوحي بأنه يختلف كثيراً عما كان عليه عندما ترجم كليلة ودمنة (سنة 133هـ) وقد ترجمه وفي ذهنه فكرة في الإصلاح ليقف بين حضارتين ينهل من الأولى ليغذي الثانية التي أخذت أنوارها تشع في الآفاق، ترجم الكتاب لما رآه ويراه من دسائس ومؤامرات وخيانات وقتل وتشريد وفساد في الولاة، فأراد أن يكون الكتاب موجهاً غير مباشر لذوي الألباب، كما تبرزه مقدمته[78]. ولو كان يبغي مصالح دنيوية في الداخل إلى السلطان، أو لكي يجعل إسلامه وسيلة إليه لما كتب هذا الكتاب، ولما كان قد كتب رسالة الصحابة. ولو أن أبا جعفر المنصور ـ وكان آنذاك ولياً للعهد ـ استشعر زندقة أو شعوبية، أو طعناً حقيقاً في الخلافة والسلطة، وتثويراً للرعية عليها لما أهمل ابن المقفع لحظة واحدة، وليس هناك من يمنعه من معاقبته، وهو الذي أنفذ قضاءه في أقرب المقربين إلى أخيه أبي العباس، وهو أبو مسلم الخرساني، فلما أحس منه الخطر على الدولة، وظن به الشعوبية والعنصرية قتله[79]. وكلنا يعرف أن ابن المقفع كان على دين المانوية قبل إسلامه، والمانوية تؤمن بإله النور، وهو إله الخير، ولهذا يقدس أبناؤها النار ويتعبدون عندها، ومن هنا يعظمون إبليس لأنه مخلوق من نار، على حين أن إبليس كان عند ابن المقفع حسوداً بغيضاً إلى نفسه وحسده سبب عصيانه[80]. وما منا أحد إلا عرف أن أبا جعفر المنصور قد قتل ابن أبي العوجاء على زندقته حين دس الأحاديث الشريفة على رسول الله(ص)، ثم قتل المهدي بشاراً وصالح بن عبد القدوس؛ وقيل قتله الرشيد مع

(78) راجع ما تقدم 85- 96.
(79) راجع ما تقدم حاشية 18 من الفصل الأول.
(80) راجع ما تقدم حاشية 59 من الفصل الأول.

obeikandl.com

غيره[81]. وما كان المنصور ليرحمه لو أيقن بزندقته أو شعوبيته، وهو الذي أمر بقتله على أدنى من ذلك بشأن يتعلق بكتاب الأمان، علماً أنه كان يضطغن عليه من قبل لأسباب متعددة. أما خبر الزندقة ومن رد عليهم وأفحمهم فإننا لا نجد ذكراً لابن المقفع في ذلك كله؛ وأن أدخله الجاحظ في عدادهم. ويعد بعض المعتزلة من أبرز من رد على الزنادقة والملحدين وألزموهم الحجة وأفحموهم؛ مثل أبي الهذيل العلاف، والجاحظ وبشر بن المعتمر وإبراهيم النظام وغيرهم من أهل الملة الإسلامية[82]. فابن المقفع لم يضع كتاباً في (مثالب العرب) مثل أبي عبيدة معمر بن المثنى [83] ولا أبطل أحد ثقافته أو ما كتبه؛ أو نهى عنها، كما أبطل المهدي رواية حماد الراوية على الملأ في السوق، ولا انسلخ من الدين، وأقر على نفسه بالألحاد أو الزندقة والشعوبية منذ إسلامه، ولا ارتكب الفجور وتهتك قولاً وفعلاً[84]. ولم يطلب منه أحد من الولاة أو الخلفاء أن يسلم، ولا كان هذا من صميم عمل أي واحد منهم في داخل الدولة الإسلامية، بل إن كثير منهم صار في حياته وطبائعه أشبه ما كان عليه الفرس أنفسهم من دعة وترف، فكيف يطلبون إليه الإسلام؟!!

وبناء على ذلك كله فآثاره الباقية، أو المفقودة ليس فيها ما يؤكد زندقته لا الزندقة العلمية التي عرف بها الأدباء والمفكرون ولا الزندقة المعروفة عند الناس.

(81) انظر الأغاني 14 / 180 وأمالي المرتضى 1/ 137- 144 وضحى الإسلام 1/ 155.
(82) انظر رسائل الجاحظ 2/ 122- 123 وأمالي المرتضى 1/ 144 وضحى الإسلام 1/ 166؛ وراجع حاشية 44 - 50 مما تقدم و حاشية 13- 14 من مدخل الفصل الأول.
(83) انظر الفهرست 53 ووفيات الأعيان 3/ 105 وتاريخ آداب اللغة العربية 1/ 206.
(84) انظر الأغاني 5/ 164 وأمالي المرتضى 1/ 131 ووفيات الأعيان 1/ 164 وضحى الإسلام 1/ 150 و 106.

obeikandi.com

فكيف يكون زنديقاً من يقول: (وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين وفي الأخلاق وفي الآداب، ثم يكثر عرضه على نفسه، ويكلفها إصلاحه)[85].؟!

فهذا الكلام يشبه المأثور من كلام عمر بن الخطاب (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا؛ وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا. فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم)[86]. ومما يؤيد ذلك قول آخر لابن المقفع: (وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات: ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه...)[87]. وقوله: (الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله إلى خلقه، وأعظمها منفعة؛ وأحمدها في كل حكمة)[88]. وهو الذي يرى أن من استخف بالأتقياء أهلك دينه، وقدمهم في المنزلة على الولاة والإخوان فقال: (وأحق من لم يستخف به ثلاثة: الأتقياء والولاة والإخوان، فإنه من استخف بالأتقياء أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان أفسد مروءته) [89]. ولعل الأقوال الكثيرة لابن المقفع في العديد من آثاره تدل بما لا يقبل الشك على صدق إيمانه بالإسلام، وإخلاصه لبناء نهضة الأمة الإسلامية في إطار نزوع ثقافي إصلاحي إنساني مبني على منهج عقلي صرف، ولم يكن النزوع للثقافة الفارسية التي ينهل منها أفكاره سبباً في الارتكاس إلى الشعوبية التي ارتكس إليها بعض الأدباء والمفكرين، دون أن يتنكر لانتمائه إلى فارس، ولهذا لا ننكر عليه رجوعه إلى الثقافة الفارسية، ولا

(85) الأدب الصغير وانظر أمراء البيان 105 و106.
(86) تاريخ عمر بن الخطاب 160.
(87) الأدب الصغير 26.
(88) الأدب الصغير 28.
(89) الأدب الصغير 52.

obeikandl.com

تمسكه بانتمائه إلى بني جنسه، ما دام إنه لم يجعلها في إطار شعوبي تعصبي، وهو ما نراه عند كثير من أبناء الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان. فضلاً عن أن ثقافته ـ وهو ما يزال في مقتبل العمر ـ كانت بمقتضى حياته التي يمارسها، فهو لا يزال مقيداً بتعاليم أسرته وثقافتها، فهو لم يكن يملك إلا اللغة الفارسية والعربية، ترجم بوساطة الثانية ما يعرفه عن ثقافة فارس مثله مثل عدد آخر من المترجمين في عصره، وإن احتل الرئاسة فيهم[90].

ومن هنا ندرك أن ابن المقفع لم يعد كاتباً أو أديباً عادياً؛ بل صارت له مكانته عظيمة في ميادين الترجمة والكتابة واشتهر فيهما وبتأديب الأولاد؛ حتى أدت شهرته في ذلك إلى صناعة الكتب ونسبتها إليه؛ وكتابة الرسائل وترويجها عليه[91]. وكلما راج كتاب صنع عليه كانت تهمة الزندقة تلحق به، وقوى الميل إلى هذه التهمة أنه كان يجتمع بعدد من الزنادقة والمنحرفين الضالين من أهل الفسق والشراب، وكأنه تغافل عن قوله: (لا يذكر الفاجر في العقلاء)[92]، فالعقلاء كانوا أشد نقداً له حين عاشر المجان، وكان بمنأى عن ذلك.

ومن هنا ننتقل إلى هذا السبب الهام الذي كان وراء اتهام ابن المقفع بالزندقة، عند الخاصة قبل العامة.

اجتماعه ببعض المستهترين

لعل مناقشة الأسباب قد جنحت بالعقل إلى تبرئة ابن المقفع من الزندقة؛ وما

(90) انظر رسائل الجاحظ 122/2 والفهرست 172/ 182 وأمالي المرتضى 1/ 135 - 137.
(91) التنبيه والإشراف 66.
(92) الأدب الصغير 51.

obeikandl.com

علق بها من مفهوم الشعوبية، على الرغم من أن كثيراً من القدماء والمحدثين قد تعلقوا بذلك؛ ولم يقتنعوا ببراءته منهما، ثم صار اجتماعه مع بعض الزنادقة والمجان في حياتهم دافعاً قوياً لمناوئيه لتأكيد تلك التهمة، ولا سيما أن العامة تربط بين حياة المجان وبين مفهوم الزندقة[93]. فالفسق لديهم مرتبط بالخلاعة والاستهتار وشرب الخمرة؛ لأن الشراب قد يغلب أهله؛ فضلاً عن أن سلوك هؤلاء ينافي القيم الاجتماعية والأخلاقية التي تواضع عليها أبناء المجتمع الإسلامي، وإن كان ظاهر الحياة العامة قد اكتسبت ألواناً اجتماعية جديدة منفتحة على عادات الأقلام التي دخلت الإسلام، فانتشرت أنماط من الحرية الاجتماعية في المأكل والمشرب والملبس لم تكن سابقاً.

ولا شيء أدل على هذا كله من أن آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قد اتهمه المهدي بالزندقة (على حبه إياه لتظرفه) لأنه كان في بداية حياته (خليعاً ماجناً منهمكاً في الشراب). وكان قد أفرط بالمجون والشراب في بداية حياته، وقال فيه كلاماً كثير من الهجر؛ حتى أخذ به إلى المهدي، ولما تيقن من صحة اعتقاده وإن عد في طبقة المجان عفا عنه، وقد عمر، ثم نسك في أخريات حياته[94].

فابن المقفع أراد أن يجمع بين الدنيا والآخرة كما يقول: (لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجد من لذة دنياه ؛ وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها)[95]. ولكن عدداً من القدماء حشره في زمرة المجان والمستهترين؛ مما

(93) انظر مثلاً: الأغاني 13/ 279 و أمالي المرتضى 138/1 وابن المقفع 85.
(94) انظر مثلاً: الأغاني 15/ 286 - 288 و 443 وضحى الإسلام 1/ 146 - 149 و 154.
(95) الأدب الصغير 54.

جعل تهمة الزندقة تلحق به، على حين لم يشر إليه المعري في جماعة الزنادقة أو المجان الذين أدخلهم جهنم؛ مثل بشار والوليد بن يزيد (الخليفة الأموي) وأبي نواس...[96]. إذاً؛ اختلف الناس في جعل التعهر والمجون وشرب الخمرة زندقة؛ فالمجون يدخل في باب التملح أو التظرف، ما لم يمس جوهر الاعتقاد الإسلامي. فكل من شرب الخمرة واستمتع بالملذات وجاهز بالقول في ذلك من غير إلحاد أو شك فهو بريء من الزندقة، وداخل في باب التظرف؛ لأنه يتزندق عن عقيدة علمية أو اجتماعية، وهذا ما شاع بين الخاصة لا بين عامة الناس، كما وجدناه عند آدم بن عبد العزيز وقد رمي يحيى بن زياد بالزندقة وكان من أظرف الناس وأنظفهم، فكان يقال أظرف من الزنديق، وكان محمد بن زياد يظهر الزندقة تظارفاً، فقال فيه ابن مناذر:

يا ابن زيـاد يا أبا جـعفـر ... أظهرت دنيا غير ما تخفي
مزندق الظاهر باللفظ في ... بـاطن إسـلام فـتى عـف
لـست بـزنـديق ولـكـنما ... أردت أن تـوسـم بالـظرف[97].

لهذا كله ارتبطت الزندقة بالمجون والشراب، واتخذها بعض القوم سلاحاً لرمي خصومهم بالزندقة، وهذا ما وقع لابن المقفع الذي اجتمع ببعض المجان فاتهم بها وكان الجاحظ أول من أشاع عليه اجتماعه بمرتكبي الإثم والفجور فقال: (كان منقذ بن زياد الهلالي؛ ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد، وحفص بن أبي ودة، وقاسم بن زنقطة وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة؛ وحماد عجرد؛

(96) انظر رسالة الغفران 432 والأغاني 13 / 247 و 14/ 174 و 321.
(97) انظر مثلاً: الأغاني 18/ 181- 182 وضحى الإسلام 1/ 149 وجمهرة رسائل العرب 3/ 61 - 63.

obeikandi.com

وعلي بن الخليل؛ وحماد بن أبي ليلى الراوية؛ وحماد بن أبي الزبرقان، ووالبة بن الحباب، وعمارة بن حمزة بن ميمون، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ المهلبي؛ وبشار بن برد المرعث، يجتمعون على الشرب وقول الشعر؛ ويهجو بعضهم بعضاً؛ وكل منهم متهم في دينه)[98]. ونحن لا ننفي تهمة الزندقة عن بعض من ذكرهم الجاحظ؛ لكن بعضهم الآخر كان رقيق الدين؛ لأنه ماجن مثل يحيى بن زياد صاحب ابن المقفع والرشيد، وهناك آخرون عرفوا حقاً بالزندقة ولم يشر إليهم الخبر السابق[99]. إن كل من يراجع الخبر يجد أن الجاحظ أدخل ابن المقفع في زمرة الفسقة والملحدين والزنادقة لاجتماعهم على الشراب، وقد رأى أبو الفرج في هذا التوسع ضالته فطار بها، وشن حملة شعواء على المجان، ومن ثم رماهم بالزندقة كمطيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثي؛ ثم زج في زمرتهم ابن المقفع كما في قوله: (كان مطيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثي، وابن المقفع؛ ووالبة بن الحباب يتنادمون ولا يفترقون، ولا يستأثر أحدهم على صاحب بمال ولا ملك، وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة)[100]. فكثير منهم ارتكب الآثام والفواحش وجاهر بها قولاً وعملاً؛ مما يناقض الإسلام لقوله تعالى: (لا يحب الجهر بالسوء) (النساء 4/ 148).

ولعل اجتماعه بالمجان والزنادقة الملحدين كان وراء اتهام المرتضى له برقة الدين على جودته في الأدب، ولكننا ـ ونحن نعجب بالسيد المرتضى ـ ندرك أن ابن المقفع لم يكن رجل دين ـ وإن كان رجل أدب وفكر وتأديب وإصلاح

(98) أمالي المرتضى 1/ 131.
(99) انظر مثلاً: الأغاني 13/ 279 و14 / 174- 175 و321 وما بعدها و335 وأمالي المرتضى 1/ 132 وما بعدها، والصداقة والصديق 21 وضحى الإسلام 1/ 151- 152 وابن المقفع 58- 59، وانظر (رسالة ابن المقفع إلى يحيى بن زياد، ورد هذا عليها، ورسالة يحيى إلى هارون الرشيد في) جمهرة رسائل العرب 3/ 61 و 209.
(100) الأغاني 13/ 279 وانظر فيه 285 و14/ 174- 175 و 321.

obeikandl.com

اجتماعي وسياسي ـ بكل معطيات مفهوم رجل الدين، ولكنه في الوقت نفسه أسلم عن وعي وإدراك واعتنق الإسلام ظاهراً وباطناً: على ما كان عليه في حياته من معاشرة المستهترين وشاربي الخمرة؛ فضلاً عن أنه كان يجتمع كثيراً بداوود بن علي بحكم صلته بأخوته عيسى وإسماعيل وسليمان؛ وكان داود متهماً بالفجور والتهتك، فسمة حياة كثير من أهل السلطان والأدباء والمفكرين، صارت مطبوعة بالحياة الفارسية بما عرفت من اللهو.

وإذا كان داود لم يتهم بالزندقة سبب الخصومة السياسية والفكرية والدينية والأدبية، فالجاحظ مازجه في زمرة المتهمين برقة الدين لفجورهم وشهرتهم بمقارعة الخمرة والمتع إلا إرضاء للخلفاء العباسيين في عهده الذي يبتعد عن ابن المقفع أكثر من مئة سنة؛ وكذلك كان أبو الفرج الأصفهاني مبغضاً له في الهوى السياسي. وكلنا يعرف أن الأصفهاني كان أموي الهوى، بينما كان يعيش ابن المقفع ولاء كامل لأعمام الخليفة العباسي المنصور من آل علي، وهم من كانوا يطبقون على أغلب ولايات الخلافة، فهو خادم لبني العباس، ولذلك جعل الأصفهاني اجتماعه بأهل الفسق والفجور سبباً إلى اتهامه بالزندقة، ودليلاً عليها.

ولعل أبا الفرج روج لتهمة الزندقة على ابن المقفع حين أكثر من الأخبار التي تتحدث عن الزنادقة وإظهارهم بكل وقاحة للمجون قولاً وفعلاً، واعترافهم به؛ واعتراف بعضهم بالزندقة كابن أبي العوجاء، أو اعتراف أبنائهم كابنة مطيع بن إياس [101]. ولا شك في أن بعض الفلاسفة والمفكرين والأدباء والشعراء

([101]) الأغاني 13/ 279 و 287- 288 و 293 و 295 و 14/ 174- 175.

وكثيراً من الناس قد مارسوا نوعاً من الحرية الفكرية والاجتماعية في المطعم والمشرب والقول؛ ولم يكن في هذه الحرية بأس ما دامت بعيدة عن السياسة، ولهذا فإنهم كانوا بمأمن في يد السلطان وهم يقعون في المحرمات، حتى إذا ما سقطوا في مكامن الحذر رفع في وجههم تهمة الزندقة التي جاءت من استهتارهم وفجورهم. ولا شيء أدل على هذا من حكاية بشار بن برد؛ فقد ذهب أكثر الدارسين إلى أنه متهتك ولم يمنعه فجوره من الدخول على المهدي الخليفة العباسي؛ أو غيره من معاصريه كحماد عجرد، ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد، ولكن فجوره جعل أقرب الأدباء إليه ينعته بالزندقة؛ وهو حماد عجرد حين أبلغ بهجاء بشار له فقال: (والله ما أبالي بهذا من قوله؛ وإنما يغيضني منه تجاهله بالزندقة، يوهم الناس أنه يظن أن الزندقة تعبد رأساً، ليظن الجهال إنه لا يعرفها، لأن هذا قول تقوله العامة لا حقيقة له، وهو والله أعلم بالزندقة من ماني)[102]. فالمهدي الذي نكل بالزنادقة وطاردهم ـ وهكذا فعل من جاء بعده ـ لم يكن بشار يعنيه في استهتاره وفجوره حتى إذا ما هجاه وأفحش دفعه إلى (عبد الجبار) فقتله في البصرة[103]. وكان بشار قد سأل: (أي متاع الدنيا آثر عندك؟ فقال طعام مز؛ وشراب مر، وبنت عشرين بكر)[104]. ولسنا نرتاب لحظة واحدة في أن ابن المقفع قد عاشر بعض المستهترين وشاركهم مجالسهم على الرغم من قوله: (الدين أفضل المواهب التي وصلت من الله إلى خلقه؛ وأعظمها منفعة؛ وأحمدها في كل

(102) انظر الأغاني 3/ 219 و 230 و 4/ 185 و 14/ 328.
(103) انظر الأغاني 3/ 241 و 243- 247 وتاريخ الطبري 8/ 165 وضحى الإسلام 1/ 140- 143.
(104) الأغاني 4/ 201.

obeikandl.com

حكمة)[105]، ومن معرفته بأن الفاجر لا يذكر في الخير والعقل؛ لقوله: (لا يذكر الفاجر في العقلاء، ولا الكذوب في الإعفاء)[106]. فابن المقفع اجتمع إلى أولئك اعتقاداً منه بأنهم في المنزلة العليا من الثقافة في الشعر واللغة والأدب، قبل الإسلام ـ غالباً ـ ثم يرى أنه يعتقد الإيمان على الصواب، فيؤدي الفرائض ويتجنب الكبائر كما توحي أقواله وما قاله بعض أصحاب بشار: (كنا إذا حضرت الصلاة نقوم ويقعد بشار، فنجعل حول ثيابه تراباً لننظر هل يصلي؛ فنعود والتراب بحاله)[107] فاجتماعه بأمثال بشار من أهل الفسق قد أزرى به عند رجال الدين وعند العامة على السواء، ولكن غشيانه لمجالس الطرب والقينات لم يكن في غير محرم؛ فهو يقسم حياته بين دنياه وآخرته دون أن يضيع الثانية لحساب الأولى كما سنذكره.

ونحن لسنا ممن يذكر على كل حر شريف متدين أن يجتمع مع غيره من الأحرار وإن لم يكونوا متدينين؛ أو مع العابثين المتظرفين قاصفي المتع والشراب، على أن يبقى على حريته وتدينه، ولكننا نقول: من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

ويرى الأستاذ محمد كرد علي أن هناك العديد من الأدباء الذين دافعوا عن الدين الإسلامي رموا بالزندقة لأسباب سياسية أو شخصية أو مذهبية كما حدث للجاحظ، وسبب اتهام الجاحظ بالزندقة لكونه معتزلياً يظل دون السبب الذي رمي به ابن المقفع بالزندقة؛ ويتجسد في اجتماعه ببعض الزنادقة

(105) الأدب الصغير 38.
(106) الأدب الصغير 51.
(107) الأغاني 3/ 186 وانظر الأدب الصغير 27 و40 و42 والأدب الكبير 69 وراجع حاشية 37 من الفصل الأول.

obeikandl.com

والمستهترين، على الرغم من أنهم ينتمون إلى طبقات اجتماعية رفيعة، ويحملون الشرف والحرية إباءً في أنفسهم، فالأستاذ كرد علي يذهب وفق الشروط التي وضعها ابن المقفع للصداقة كما في قوله: (إذا نظرت في حال من ترتئيه لإخائك، فإن كان من إخوان الدين فليكن حراً ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع)[108].

فاجتماعه مع من يوازيه في المكانة والإباء من دون أن يتصف بالكذب أو الشر ولو شرب الخمرة ليس من المحظور في قانون الأرض وقانون السماء، وليس من المحظور أن يسمر الناس ويتنادروا ويتمازحوا، وهذه الطبقة من الرجال كانت من أرق الناس وأفضلهم[109]. وحينما نلحظ في كلام ابن المقفع غمزه من رجال الدين المرائين الحريصين، ندرك أنه لم يكن على وفاق معهم، فهو مع رجل الدين الصادق الكريم، وهذا لا مراء فيه؛ لكن رأيه في الذين اتخذوا الدنيا ومتعها هو ما يستحق الوقوف عنده، ولعل اجتماعه بمثل هؤلاء ولو كانوا أحرارا لم يعرفوا الشر والكذب، والكذب هو الذي يعاب عليه؛ لأن سلوكهم في الشراب وطلب المتع لا يتفق مع جوهر العقيدة الإسلامية وتعاليمها، فالناس عامة وبعض الأدباء خاصة قد أخذوا ابن المقفع بشبهة الشك والإلحاد لأنه عاشر أمثال أولئك الأحرار؛ وشرب معهم النبيذ؛ وإن رأى أنه يبيح لنفسه شربه على مذهب بعض فقهاء العراق، دون أن يرتكب إثماً كما يقول[110]:

سأشرب ما شربت على طعامي ثلاثــاً ثم اتركه صحيحا

(108) الأدب الكبير 109 وراجع حاشية 28 من الفصل الأول.
(109) تأمل مطولا في أمراء البيان 101- 106 ومناقشته المطولة لاجتماع ابن المقفع بالمجان وراجع حاشية 37 من الفصل الأول.
(110) انظر أمراء البيان 101- 102 وراجع حاشية 29 من الفصل الأول.

obeikandi.com

فلـست بـقـارف مـنـه أثـامــاً ولست براكب منه قبيحا

والأحرار عند ابن المقفع طبقة تدل على الأشراف، في مقابل طبقة (السفلة) كما يراه الجاحظ في البخلاء[111].

وهذا كله يوافق دعوته لكل عاقل - مهما كان مغلوباً - ألا ينشغل عن أربع ساعات: (ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه؛ وساعة يحتسب فيها نفسه؛ وساعة يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره؛ وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها مما يحل ويجمل، فإن هذا الساعة عون على الساعات الأخر؛ وإن استجمام القلوب وتوديعها زيادة في قوة لها وفضل بلغة)[112] فإذا كانت القلوب تصدأ ولا بد لها من الترويح عنها؛ فإنه لا يكون وفق تصور ابن المقفع السابق وهو القائل: (السعيد يرغبه الله في الآخرة حتى يقول لا شيء غيرها، فإذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا؛ ولم ينقصه من سروره فيها. والشقي يرغبه الشيطان في الدنيا حتى يقول: لا شيء غيرها. فيجعل الله له النغيص في الدنيا التي آثر، مع الخزي الذي يلقى بعدها)[113]. وأياً ما يكن مأخذنا على اجتماع ابن المقفع بالمجان، وشربه للنبيذ فإننا موقنون بأن اعتقاده بالإسلام بقي سليماً، وبأنه لم يرتكب محرماً، ولا كبيرة وإن أحب الجمال، وشغف بالطرب؛ وغشي معاهد الصفاء، واجتمع بالقيان، فتهمة الزندقة التي جلبها له

(111) انظر البخلاء 428 وتأمل رسالته إلى يحيى بن زياد في جمهرة رسائل العرب 3/ 61- 63 ففيها ما يؤكد أن مصطلح (الحر) وجمعه (الأحرار) يدل على طبقة اجتماعية في مقابل الطبقة الدنيا التي يسميها هو (السفلة)
(112) الأدب الصغير 26- 27.
(113) الأدب الصغير 54.

obeikandl.com

هذا كله لا ينفي اعتقاده الصحيح بالإسلام مادام يؤمن به ويؤدي الفرائض، وهو القائل (فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب وتجتنب الكبائر، وتؤدي الفريضة. لزوم من لا غنى له عنه طرفة عين؛ ومن يعلم أنه إن حرمه هلك)[114].

فكيف يكون زنديقاً من يجسد هذا كله في قوله وفعله؟ ومن ثم فهناك دليل آخر يشهد له بالإيمان الصحيح المستند إلى العقل الراجح، فالعقل عنده يقوي الإيمان؛ ويزيل عن النفس الشك والإلحاد فيقول:(مما يدل على معرفة الله وسبب الإيمان أن يوكل بالغيب لكن ظاهر من الدنيا صغير أو كبير عيناً، فهو يصرفه ويحركه. فمن كان معتبراً بالجليل من ذلك فلينظر إلى السماء فسيعلم أن لها رباً يجري فلكها ويدبر أمرها، ومن اعتبر بالصغير فلينظر إلى حبة الخردل فسيعرف أن لها مدبراً ينبتها ويزكيها ويقدر لها أقواتها من الأرض والماء؛ يوقت لها زمان نباتها وزمان تهشمها، وأمر النبوة والأحلام، وما يحدث في أنفس الناس من حيث لا يعلمون؛ ثم يظهر بالقول والفعل، ثم اجتماع العلماء والجهال، والمهتدين والضلال على ذكر الله وتعظيمه، واجتماع من شك في الله وكذب به على الإقرار بأنهم أنشئوا حديثاً؛ ومعرفتهم أنهم لم يحدثوا أنفسهم. فكل ذلك يهدي إلى الله ويدل على الذي كانت منه هذه الأمور، مع ما يزيد ذلك يقيناً عند المؤمنين بأن الله حقاً كبير ولا يقدر أحد على أن يوقن أنه بالباطل)[115]. فلو لم يكن لابن المقفع إلا هذا الكلام لكفاه دلالة على إيمانه بالله العلي القدير، ويبدو لنا أن هذا لم يوضع في

(114) الأدب الكبير 69.
(115) الأدب الصغير 42.

obeikandi.com

ميزان أولئك الذين اتهموه بالزندقة؛ وجعلوا نقله للتراث الفارسي نمطاً من الشعوبية والمتعصبة؛ وعودة إلى الدعوة للفرس ودياناتهم، لم ينظروا إلى عمله أنه مزج ثقافي حضاري بين التراث القديم الممثل بالثقافة الفارسية، وبين الجديد الممثل بتعاليم الإسلام ومد نوره إلى الآفاق، لقد طمسوا كل فضل له، وما رأوا إلا اجتماعه ببعض المجان والزنادقة ليلصقوا به تهمة الزندقة والشعوبية. فابن المقفع وقع في مهاوي غشيانه لمعاهد الصفاء؛ ولكنه سقط في آن معاً في يد مناوئيه لينالوا منه، إذ اولوا تصرفاته على محمل الفسق وعدم الاعتقاد الصحيح؛ وكذلك فعلوا بآثاره. فهي عندهم تتصف بالنزوع الفارسي المتعصب، فماذا يفعل ابن المقفع إذا كانت دعوته صادقة لانتشال الأمة من أوضاع كثيرة متردية في الواقع السياسي والاجتماعي والإداري، بينما يفسرها أعدائه تفسيراً منحرفاً؟ فهل أصبحت النصيحة مدانة لأنها جاءت من رجل عاشر بعض المجان؟! ومهما تكن الإجابة فقد ارتبط معنى الزندقة في أذهان الناس بمعاني التهتك والشراب؛ ونعت كل من يقدم عليهما بالزندقة ولما كان أكثر الأدباء المجان من أصل فارسي فإن الزندقة والشعوبية بهم بسبب أو آخر، وحين شاركهم ابن المقفع في الأصل والتظرف وغشي مجالس الصفاء صار زنديقا[116]. ولهذا لم ينتج ابن المقفع من التهمة بها لأنه عرف بمعاشرته للعديد من الأدباء الذين اشتهروا بالفسق والفجور وإن لم يهون يوماً من الأيام من شأن الدين الإسلامي، ولم يتعرض للعرب والمسلمين بأذى يلحقهم، وكيف يكون ذلك وهو في حمى أعمام الخليفة الذين تقوم الخلافة على كاهلهم في

(116) انظر البخلاء 121 وما يدل فيه من تظرف ابن المقفع، ومثله في ثمار القلوب 176 وانظر أيضا ضحى الإسلام 1/ 150 وابن المقفع 58.

obeikandl.com

عصره؟!

إنه لم يتعرض للقرآن بأي شبهة من أشكال المعارضة، وليس في آثاره التي بين أيدينا ما يشي بذلك، بل ما تحتوي عليه إنما تدل على الإجلال كل الإجلال للإسلام وأهله، وكتاباته ظلت في المقام الأرفع في أي جرح يخدش مروءته ودينه، ولم تقع -كما نراه - في موقع بيوء نتيجتها بغضب الله، أو يتعرض لمقته بسبب ما عمله، وهو القائل (فضل العلم في غير الدين مهلكة، وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قائد إلى النار)[117]. تلك في قراءتنا لتهمة الزندقة التي رافقتها تهمة الشعوبية في أسبابها ونتائجها ومناقشتها؛ ولعلها تضع الحقيقة ماثلة أمام الأجيال لئلا يسقطوا في مهاوي الانحراف. ومن ثم التراث الفارسي لم يعد - عنده - تراثاً متصفاً بالنزوع الفارسي، ولا بالعقيدة المانوية أو غيرها وإنما غدا رؤية إيمانية مصبوغة بعقيدة الإسلام ومبادئه السامية كما يستشف من قوله : (لم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه: لا في تعظيم الله - عز وجل - وترغيب فيما عنده؛ ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها..)[118] مما جعله بحق يضع نفسه بين حضارتين، فارسية قديمة وحضارة عربية إسلامية جديدة. وكانت حياته وآراؤه صدى حقيقياً لهما، كما في نصيحته للناس في اختيار الإكرام: (إذا أكرمت على دين أو مروءة؛ فذلك فليعجبك!! فإن المروءة لا تزايلك في الدنيا، وإن الدين لا يزايلك في الآخرة)[119] فالإكرام الأعظم في اختيار طريق الدين.

(117) الأدب الصغير 57.
(118) الأدب الكبير 68.
(119) الأدب الكبير 128.

obeikandl.com

وهذا أخيراً ما ننتهي إليه ليتأكد كل ذي لب أن ابن المقفع بريء من الزندقة براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب (عليهما السلام).

ولعل ما نتحدث عنه في الفصل الرابع (ابن المقفع أدبياً) يعضد ما انتهينا إليه، لأن أدبه يشكل جوهر رؤيته وصدق اعتقاده، إذ شهد لأبداعه الأدبي أعدائه وخصومه قبل مؤيديه، إذ خطت العبقرية الأدبية مكانتها في سجل الخالدين، ولم ينل منها حاقد أو متعصب لمذهب أو جنس أو فكرة، وإذا كان العقل مبتلى بالنقص فإن الإنسان يسعى في ضوء التجارب الثقافية والإنسانية إلى الكمال. وهذا ما كان يمارسه ابن المقفع في حياته وثقافته وأدبه.

obeikandl.com